



• ثيسيفر



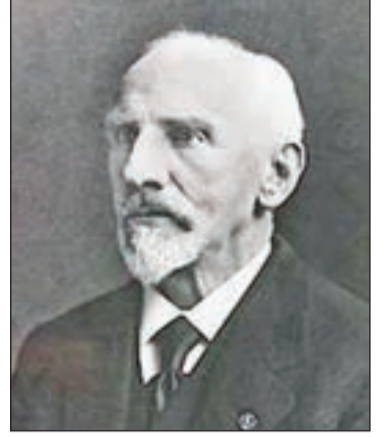
• كورتيلمون



• ألويس موزيل



• سيتزن



• هورجرونيه



• فايس



• شاتوبريان



• باديا

رحالة متنكرون في خدمة الاستعمار

لم يخل قدوم الرحالة إلى الصحراء العربية من طلب المعرفة التي كانت موضوع حاجة الإمبراطوريات الغربية فقد أقر «فارتيم» بأن رحلته إلى شبه جزيرة العرب جاءت استجابة «للرغبة الجامحة في المعرفة. وقد عرف عنه إنه كان يعمل لحساب ملك البرتغال الذي مول رحلته والذي قدّم له نائبه في الهند براءة الامتياز والفرسية وضّمه إلى جيوشه المحاربة». أما «دومينغو باديا» الذي أحاطه الغموض حينما ارتحل فقد كان «عضوا فاعلا في خطة دولية». وقد شرع يكتب تقارير سرية رفعها للمسؤولين الإسبان ثم الفرنسيين يغيرهم ببسط نفوذهم الإمبراطوري في بلاد المغرب والمشرق على حد سواء وجاراه في ذلك «سيتزين» الذي كانت مهمته «إرسال التقارير إلى القيصروسى عن الوضع العسكري في آسيا الوسطى التي وقفت في وجه التوسع الروسي ومن أجل أن يعطي تلك الرحلة المصدقية المطلوبة جاء إلى مكة المكرمة مدعيا تأديبه فريضة الحج». وللسبب نفسه سافر «بوركهارت» إلى شبه الجزيرة العربية لحساب الجمعية الجغرافية الأفرقية الممولة من «إدارة المستعمرات البريطانية لغرض التعرف إلى المناطق قبل محاولة احتلالها واستعمارها». أما «بيرتون» فلم يخف تطلعه إلى مد النفوذ البريطاني إلى شبه الجزيرة العربية وعلى هذا «قدم اقتراحات كثيرة حول اكتساب البدو وحفزهم إلى خدمة الإمبراطورية حيث يمكن أن يكونوا فرقة ممتازة من المشاة». وقد وصف بأنه كان «إمبرياليا بلا حدود يسعى إلى خدمة إمبراطوريته ورفع شأنها وزيادة مستعمراتها». يعود أمر «الولع» بالشرق إلى حقيقة مؤداها جهل الغربيين به إلى وقت قريب وكل نقص يروم الاكتمال حتى لو لزم الأمر تزوير الحقائق وإعادة إنتاجها لاشباع ذلك النقص ففي سياق تشكيل هوية الغرب في العصر الحديث وجب بسط المعرفة الغربية على مستوى العالم وشموله بها وكان الشرق نائبا وشبه منمنع فأصبح موضوع إغراء للبحث والتخيل والاكتشاف والسيطرة وطبقا ل «راشد شان» فإن جهل كثير من الكتاب الغربيين بأرض العرب وسكانها وأخلاقهم وعاداتهم دفعهم إلى رسم صورة لشعوب تلك الأرض «من صنع خيالهم». أما «كارين أرمسترونغ» فقد ذهبت إلى أن القرن الثامن عشر عمل على إنماء «ولع» جديد بالشرق. وجعل مستشرقون من هذه الكلمة الجديدة في متناول القارئ العام كما بدأ الرسامون والموسيقيون والكتاب يفكرون مليا في الشرق الغريب جدا والغامض جدا. ولم تكن هذه الصورة أكثر دقة من الصورة العداوية القديمة عن «الإسلام» بل كانت تعبيراً ماثلا عن الأحلام الغربية «فدالشرق الغريب» لا يمت بأية صلة إلى الشرق الحقيقي وغالبا ما كان يخيب ظن الرحالة الذين يقصدونه ويشعرون بأنهم خدعوا عندما يكتشفون ذلك.

إن «حب» الشرق الجديد كانت عملية إسقاط أخرى إنما هذه المرة لتوق الغربيين إلى سلع غير متوفرة في أوطانهم. كما كانت وسيلة لترويض تحدي الشرق وجعله مقاطعة من مقاطعات المخيلة الغربية». تشكلت أسس المعرفة الغربية بالشرق على خلفية من سوء التفاهم وتضارب المصالح فضلا عن التحيزات الثقافية إذ انخرط كثير من الرحالة في خدمة بلادهم بنوازع علمية واستخباراتية ونادر أن تجردوا من الحمولات الاعتقادية لثقافتهم والسياسات الإمبراطورية لبلادهم ولم تبرأ من تهمة التعاون مع الإدارات الاستعمارية إلا قلة قليلة من المشتغلين في هذا المجال.



• بوركهارت

قال الرحالة «بوركهارت» بأن «مسألة التنكر أمر شائع بين الرحالة الشرقيين كلهم». وهي وسيلة احتيالية لاكتشاف الصحاري العربية لم تنجح دائما في تضليل أهل البلاد فكان الرحالة يضبطون متلبسين بعاداتهم في كثير من الأحيان وسرعان ما تتكشف أهدافهم. والانشغال بتمويه الهوية الشخصية ضيغ على الرحالة كثيرا مما جاءوا من أجله مثل: رسم الخرائط وتحديد المواقع ومعرفة الطرق وأحوال الطقس وتقضي أوضاع القبائل وتحديد ولاءاتها السياسية وكشف طقوسها الدينية وعلاقتها الاجتماعية بما يفيد الإدارات الاستعمارية في بسط نفوذها ورعاية مصالحها. وتكاد تكون معظم المعارف الشائعة في الغرب عن صحارى العرب جهزها رحالة لهم صلات ضمنية أو صريحة بتلك الإدارات.

لم يكن من اليسير أن يتجول الرحالة في الصحراء العربية دون تحوطات كثيرة ينبغي توافرها فكان لا بد من التنكر بزي عربي وانتحال أسماء شخصيات دينية أو شبه دينية مستترة بالاسلام وتعلم العربية والتدرب على بعض اللهجات المحلية وكسب ود زعماء القبائل بل الأمراء والملوك: فقد انتحل «فارتيم» اسم «يونس المصري» وانتحل «غورماني» اسم «خليل أغا» وانتحل «بالجريف» اسم «سليم العيص» وانتحل «باديا» اسم «علي باي العباسي» وانتحل «بوركهارت» اسم «أبراهيم بن عبدالله» وانتحل «ثيسيفر» اسم «مبارك بن لندن» وانتحل «داوتي» اسم «خليل» وانتحل «جوارد» اسم «محمود مبارك» وانتحل «دينييه» اسم «ناصر الدين» وانتحل «سيتزين» اسم «الحاج موسى» وانتحل «فيثاني» اسم «الحاج محمد» وانتحل «بيرتون» اسم «الحاج عبدالله» وانتحل «شاتوبريان» اسم «عطا الله» وانتحل «بيكتل» اسم «الحاج عبدالواحد» وانتحل «ولين» اسم «ولي الدين» وانتحل «كورتيلمون» اسم «الحاج عبدالله» وانتحل «فرايركين» اسم «الحاج محمد أمين» وانتحل «راشيه» اسم «الحاج عمر» وانتحل «هورجرونيه» اسم «عبد الغفار» وانتحل «مالتيزان» اسم «عبد الرحمن بن محمد» وانتحل «ألويس موزيل» اسم «السيد موسى الرولي». فضلا عن أسلم منهم وتسمى باسم عربي مثل «فايس» الذي أصبح «محمد أسد» و«فيلبي» الذي أصبح «الحاج عبدالله فيلبي». فهذه نماذج من أعداد كبيرة من الرحالة الذين تنكروا بشخصيات احتموا بهيبتها الدينية في الطواف داخل شبه الجزيرة العربية.

اعتمدت معارف كثير من الرحالة على الارتحال منتحلين أسماء شخصيات وهمية ولكن الملاحظة الرئيسة على تلك المعارف هي أن أصحابها كانوا يحيلون إلى أعمالهم باعتبارها مستودعا للمعرفة الصحيحة باهل الصحراء وجرى أهمل المعارف الأصلية الشائعة فيما بينهم واعتبر الوصف الغربي هو الصائب إلى ذلك فكثير من الرحالة مثل «بيرتون» و«لورنس» و«فيلبي» و«مس بيل» وسواهم انخرطوا في خدمة الإدارة الاستعمارية. وليس من المستغرب أن تكون كشوفاتهم الجغرافية وأوصافهم المسهية للمجتمعات العربية الصحراوية من ناحية الروابط العرقية والدينية والمذهبية دليل عمل لتلك الإدارة في بسط نفوذها وقد تبوأ بعضهم وظائف حساسة جدا واسهموا في تشكيل الممالك الجديدة في أعقاب الحرب العالمية الأولى وكان تأثيرهم كبير في الحفاظ على المصالح الإمبراطورية فرؤيتهم للشرق انتظمت في سياق الرؤية الاستعمارية لعالم وجب غزوه وإدراجه في سياق التاريخ الغربي.



• فيثاني



• غورماني



• بالجريف